6

هذه الطبعة

لقد صدرت الطبعة الأولى التي هي نواة هذا الكتاب قبل ربع قرن من الزمان، ثم شاء الله لي أن أسافر – بعد ذلك – إلى آسيا، وقد تعرفت هناك على مكتبة علامة الهند الكبير الدكتور محمد حميد الله، التي أهداها إلى مجمع البحوث الإسلامية بالجامعة الإسلامية بإسلام آباد؛ وهي مكتبة نوعية متميزة، تحتوي على كثير جدًّا مما كتبه كبار المستشرقين باللغة الإنجليزية أو المترجمة إليها من اللغات الأوروبية الأخرى. وقد أتاحت لي هذه المكتبة الثرية فرصة ثمينة للاطلاع على هذه الكتب الاستشراقية النادرة التي لم تتوفر لي في بلادنا العربية، وقد شجعني ذلك على إعداد الطبعة الثانية (من هذا الكتاب) بعد أن زدت فيها موضوعات جديدة، ونقحت أفكارًا وترجمت نصوصًا وعدّلت أحكامًا، معتمدًا في كل ذلك على كلام المستشرقين أنفسهم الذي سطروه في كتبهم.

ولقيت هذه الطبعة قبولًا حسنًا من الباحثين، وقد طلب مني بعض الناشرين وطلّاب العلم إعادة نشرها، إلا أنني تراخيت طلبًا للتجويد وإعادة النظر في بعض المسائل، غير أنه طال انتظاري لسنوات، جرت خلالها في النهر مياه كثيرة كما يقال، فقد سافرت إلى بلاد عديدة وحاضرت في جامعات غربية وإسلامية ومراكز ومؤسسات بحثية، والتقيت بمستشرقين كثر وتناقشنا وتشاركنا في بعض المؤتمرات العلمية ونشأت بيننا علاقات فكرية وعلمية وكل ذلك وسّع من نظرتي

obeikandl.com

إلى الدراسات الاستشراقية نشأة وتطورًا وأهدافًا وإنجازات وإخفاقات.

وقد توجهت همتي إلى إعادة نشر الكتاب نشرة جديدة أبيّن فيها دور مؤسسة الاستشراق منذ النشأة الأولى في رسم أو تشكيل ملامح لصورة الإسلام والعمل على غرسها في وعي الإنسان الغربي لتحرك مشاعره ووجدانه تجاه الإسلام حركة معينة؛ أعني: رسم صورة غربية مشوهة للإسلام – وتسويقها في الغرب– ليكون الإنسان الغربي خائفًا من الإسلام وكارهًا له في نفس الوقت.

وأشهد أن مؤسسة الاستشراق قد نجحت نجاحًا عظيمًا في مشروعها هذا، وبقي العقل الغربي يتوارث هذه الصورة النمطية جيلًا بعد جيل.

نعم كان ذلك كذلك، لكن بعض المستشرقين المستقلين أحرار الفكر ساروا ضد التيار العام للمؤسسة الاستشراقية وعارضوها ووجهوا إليها نقدًا ولومًا وتقريعًا، وقد وجدت هذه النماذج الشريفة من المستشرقين في كل جيل من أجيالهم وقد أشرت إلى بعضهم واقتبست بعض اعترافاتهم المهمة، وقد أدهشني وبهرني أحدهم وهو الإنجليزي Dr. Henry Stubbe، وجرأته في تعرية المستشرقين والمبشرين أيضًا، وقد ألف كتابًا نادرًا في الدّفاع عن النبي محمد ﷺ والقرآن الكريم، وبقي كتابه مهملًا في مكتبة المتحف البريطاني في لندن ولم يجرؤ أحدهم على نشره إلا مؤخرًا، لقد كتبت فصلًا عن هذ الرجل النبيل المتمرد الذي وضع حياته ثمناً لموقفه المنصف النزيه.

نشأ الاستشراق ليؤثر في الغرب، لكن الذي حدث أن امتد تأثيره إلى الشرق، وإلى الإنسان المسلم.

لقد كان تأثير الاستشراق مقصورًا على الإنسان الغربي حين كانت أمة الإسلام قوية منيعة فاعلة، وحين ضعفت امتد تأثير الاستشراق إليها وفعل فيها ما فعل.

ولم تكن الدراسات الاستشراقية كلها منصبة على دراسة الإسلام عقيدة وشريعة فحسب لكنها توغلت وتغلغلت في حقول معرفية عديدة مثل اللغة واللهجات واللغات القديمة والإثنيات والأعراق والجغرافيا والاقتصاد والسياسة والدبلوماسية والاجتماع والعادات والتقاليد.

هذا، وقد تشكلت مدارس استشراقية عدة اتسم كل منها بخصائص تميزها- قليلًا أو كثيرًا - عن أخواتها ويمكننا أن نشير هنا إلى:

* المدرسة الاستشراقية البريطانية.
* المدرسة الاستشراقية الفرنسية.
* المدرسة الاستشراقية الهولندية.
* المدرسة الاستشراقية الإسبانية.
* المدرسة الاستشراقية الإيطالية.
* المدرسة الاستشراقية الروسية.
* المدرسة الاستشراقية الألمانية.
* المدرسة الاستشراقية الأمريكية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الاستشراق الأمريكي يمثل الحقبة الجديدة التي تغيرت فيها الآليات والوسائل والاهتمامات والمصطلحات، وتلونت البحوث الاستشراقية في أمريكا بلون الحياة الأمريكية بشكل عام؛ فأصبح المستشرق خبيرًا استراتيجيًّا أو باحثًا سياسيًّا في دراسات الشرق الأوسط وتاريخه.

وقد وفد إلينا في عالمنا الإسلامي- في مصر مثلا- عشرات المستشرقين للتدريس في جامعاتنا وترجمة الكتب وإنجاز البحوث وإدارة المعاهد والمراكز الاستشراقية في القاهرة والإسكندرية مثل المعهد الهولندي والفرنسي والبريطاني والأمريكي والروسي والآباء الدومينيكان.. إلخ.

obeikandl.com

كما أن بعض المستشرقين قد ترأس دار الكتب والمخطوطات والوثائق المصرية، وبعضهم قد أشرف على دار الآثار والمتاحف المصرية.

وقد أثر هؤلاء المستشرقون الوافدون على الفكر والثقافة في مصر والمنطقة العربية، تأثيرًا لم يُدرس دراسة موضوعية علمية، ويُشارُ هنا إلى تتلمُذ أذكياء المصريين ونوابغهم مثل عميد الأدب العربي طه حسين وغيره عليهم تلمذةً مباشرة في الجامعة المصرية.

ثم أتى زمن الرحلة إلى الغرب للتعلم في أقسام الدراسات الإسلامية الاستشراقية فقصدها شيوخ الأزهر وكبار علمائه مثل الشيخ مصطفى عبد الرازق، وعبدالحليم محمود، وعبدالرحمن تاج، ومحمد عبدالله دراز، ومحمد البهيّ، وعبدالجليل شلبي، وأحمد الطيب وغيرهم.

ولا ريب أن أثر الاستشراق – في الغرب والشرق – لا يزال مستمرًّا وقويًّا، ومن ثمّ تشتد الحاجة إلى دراسته دراساتٍ عميقة ورصينة نظرية وميدانية، وقد أحسنت جامعة طيبة في المدينة المنورة إذ أنشأت قسمًا أكاديميًّا للدراسات الاستشراقية لينهض بجانب من هذا الواجب.

محمد الشرقاوي

أستاذ الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان

في جامعتي القاهرة وطيبة

المدينة المنورة في 20 **شعبان** 1436 (8 - 6 - 2015)

msharkawi@msn.com

المقدمة

الحمد لله، وأصلي وأسلم على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه:

ثم أما بعد،

فمما لا شك فيه أن الاستشراق والمستشرقين قد بذلوا أعظم الجهد وأخطره فيما يمكن أن يندرج تحت ما يطلق عليه: «الحوار بين الحضارات»، وقد درس بعض الباحثين هذا الجهد الكبير وقيموه وذهبوا فيه مذاهب شتى- بين مادح لا يرى فيه عيبًا ولا عوجًا، ولا أمتًا ولا نقصًا، وقادح لا يرى غير السلبيات والمثالب.

وأرى- وأرجو أن أكون مصيبًا- أن هؤلاء وأولئك قد سلكوا مضايق التعميم والأحكام المسبقة وردود الأفعال، فالواقع أن الاستشراق ظاهرة قد حدثت نتيجة أسباب نظرية وعملية ولا تزال مستمرة إلى يومنا هذا، وعلى ذلك فإن التعامل الموضوعي معها، درسًا وتقويمًا يعد من المطالب العلمية الواجبة، بل المتعينة.

ومما يؤسف له كثيرًا أن بعض هؤلاء المادحين بلا تحفظ، وأولئك القادحين بلا حدود: لم يقرأوا بأنفسهم من إنتاج المؤسسة الاستشراقية الهائل - بل إن بعضهم لم يعط الأداة لذلك- ما يمكنهم من الحكم السديد المؤسس على حيثيات صحيحة من دراسات القوم أنفسهم قديمًا وحديثًا، ومن هنا جاءت أحكامهم كلية قاطعة، وهذا ما تأباه طبيعة البحث العلمي ومناهجه الصحيحة.

وللاستشراق فيما يتعلق بالفكر الإسلامي، أو قل فيما يتعلق بالحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية ثمرات إيجابية متعددة يستحق كثير منها الذكر والتقدير، ومن ذلك مثلًا:

1. هذه الجهود الكبيرة التي بذلها بعض المستشرقين لتحقيق ونشر كثير من الآثار الإسلامية المهمة وغير المهمة ومعاناة قراءة مخطوطاتها مع الصبر الجميل والتحري والتدقيق في إخراجها، في وقت لم يكن بعض الباحثين في العالم الإسلامي ليعرفوا عن هذه الآثار غير الإشارة إلى أسمائها أو أسماء مؤلفيها فحسب.
2. كما أن جهود المستشرقين في جمع المخطوطات الإسلامية – بكل الوسائل – من شتى الأقطار والأمصار وحفظها غير خاف على الدارس المنصف، وأكبر من ذلك العمل على تصنيف هذه المخطوطات ووضع فهارس بها تسهل مراجعتها، وتيسر الاستفادة منها في مختلف مكتبات العالم شرقًا وغربًا، وما جهد بروكلمان – ثم متابعة سزكين له – ببعيد.
3. ومن أبرز أعمال المستشرقين وأكثرها ثمرة، ترجمتهم الكثير من أمهات المصادر والمراجع الإسلامية – في شتى فروع المعرفة – إلى اللغات الأوروبية الحديثة، مما أتاح للغربيين الاطلاع بأنفسهم على جانب غير قليل من التراث الإسلامي، وقد كان لهذا العمل أثر عظيم في فهم بعض العلماء الغربيين الإسلام على حقيقته أو أقرب إلى حقيقته، مما أثمر تحسنًا نسبيًّا لصورة الإسلام في فكر ووجدان كثير من الغربيين في العصر الحاضر. وهذا ركن أساسي للحوار بين الحضارتين؛ إذ الانطلاق من فهم صحيح متبادل لطرفي الحوار يقرب الشقة ويدفع التوهم والغلط.
4. ولئن كانت اللغة هي المدخل الصحيح لكل ذلك، فإن الدرس اللغوي قد حظي باهتمام طائفة كبيرة من المستشرقين، وأثمر عددًا من المعاجم اللغوية المهمة، وقدم بحوثًا مقارنة مفيدة في المستويات اللغوية المختلفة والآداب المقارنة.
5. وقد امتلك بعضهم من الشجاعة الأدبية ما جعلهم يتوفرون على نشر كتب

ونصوص جدلية كلامية وفلسفية تنتقد دياناتهم ومذاهبهم، بل ويترجمونها إلى بعض لغاتهم، ويشيدون بها في بعض الأحيان، وبين أيدينا نماذج كثيرة لذلك نذكر منها على سبيل المثال:

- نشرة روبير شدياق وترجمته لكتاب: «الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل» لأبي حامد الغزالي، وكذلك ترجمة فرنزو ألمز للكتاب ذاته.

- نشرة يوشع فنكل وترجمته لرسالة الجاحظ المسماه: «المختار في الرد على النصارى».

- تحقيق آسين بلاسيوس وترجمته لكتاب الفصل لابن حزم.

- تحقيق موشى برلمان وترجمته لكتاب السموأل بن يحيى المغربي: «إفحام اليهود».

- وترجمة موشى برلمان وتحقيقه لكتاب «السيف المحدود في الرد على اليهود» للمهتدي عبد الحق الإسلامي.

- وكذلك لكتاب: «تنقيح الأبحاث للملل الثلاث».

- ومسالك النظر في نبوة سيد البشر «للمهتدي سعيد بن حسن الإسكندراني»، نشرة وترجمة سدني أدمزوستون.

- الرد على النصارى لعلي بن ربي الطبري، حققه وترجمه كوتس.

- «الدين والدولة في إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ» حققه وترجمة منجانا.

- رد ابن تيمية على رسالة بولس الراهب وكذلك كتابه: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» للمستشرقين توماس راف وبول حورى وماتيو.

6. جهود المستشرقين في وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي وتفصيل آيات القرآن التي أسس عليها الأستاذ فؤاد عبد الباقي – رحمه الله معجمه المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، أمر يعرفه العلماء المخلصون ويقدرونه حق قدره، ومعجم سلك البيان في مناقب القرآن، للمستشرق جون بنريز.
7. وهذا الكم الهائل من المعلومات والبيانات الذي جمعه المستشرقون وحشدوه في «دائرة المعارف الإسلامية» مع تحفظنا على منهجهم في التحليل والتعليل والاستدلال والاستنباط – يجعل الدارسين عاجزين عن إنجاز بحوثهم دون الرجوع إلى بياناتها ومعلوماتها من جهة، ويجعل المؤسسات العلمية والبحثية في العالم الإسلامي تشعر بالحرج الشديد إزاء عجزها وفشلها في إنجاز مثل هذا العمل الضخم.
8. ومنها تلك البحوث التي كتبها بعض المستشرقين وتدخل في دائرة ما يمكن أن يطلق عليه النقد الذاتي للاستشراق، مثل ذلك البحث الذي كتبه المستشرق J. Fueck بعنوان The Originality of the Arabian Prophet يرد فيه بقوة على نظريات المستشرقين الذين رأوا أن الرسول محمد قد لفق ديانته من اليهودية والنصرانية. ومثل كتاب:Tor Andrae بعنوان:«Muhammad، the Man and His Faith» وكتاب M. Watt: بعنوان: «The Influence of Islam on Medieval Europe» وكتاب Southern بعنوان «Western Views of Islam in the Middle Ages».

وكلها تكشف جوانب الصورة المشوهة السوداء الكالحة التي رسمها التبشير والاستشراق للإسلام والمسلمين في عقل المواطن الغربي ووجدانه في العصور الوسطى.

هنالك إذًا جوانب مثمرة إيجابية كثيرة في الإنجاز الكبير للمؤسسة الاستشراقية، ليس من همنا في هذه المقدمة أن نحصيها أو نستقصيها.

لكننا ينبغي أن نذكر هنا أن الروح العامة التي سيطرت على المنهج الاستشراقي في معظم الحالات، وعلى أكثر المستشرقين، إبان النشأة الحقيقية للاستشراق – المتمثلة، في رأينا، في إنشاء أقسام علمية وكراسي أستاذية لدراسة اللغة العربية والإسلام في الجامعات الأوروبية الكبرى في القرن الرابع عشر الميلادي – كانت روحًا جدلية عدائية للإسلام؛ أي أن منهج الاستشراق كان يقوم على دراسة الإسلام: لغة، وعقيدة، وشريعة، وقرآنًا، وسنة، وحضارة، وتاريخًا، للهجوم عليه،... أي أن المؤسسة الاستشراقية في هذه الفترة المبكرة كانت تعمل لحساب الكنيسة، وليس لحساب العلم والبحث عن الحقيقة المجردة عن الهوى الخالصة من الغرض.

ويلتقي كثير من الباحثين: مستشرقين ومسلمين على هذه الحقيقة ونشير من بينهم على سبيل المثال إلى:

- R. W. Southern: Westen Views of Islam in the Middle Ages, Cambridge - Harvard University Press, 1962 P. 72.

- Francis Dovernik, The Ecumenical Councils, New York - Howthorn Books, 1961. PP 65 - 66.

«Of special interest is the eleventh Canon directing that Chairs of teaching Hebrew. Greek and Arabic and Chaldeen should be created at main universities, The suggestion was Raymond Lull›s who advocated learning arabic as the best means for conversion of the arabs».

JOhn W. Fueck, Montgomry Watt. _ Noraman Daniel, Edward W. _ Said» Orientalism» Vintages Books, New York, 1979 P. 331.

ويقول إدوارد سعيد: (ص49 – 50):

«Strictly speaking, Orientalism is a field of learned study, in the Christian West. Orientalism is considered to have commenced its formal existence with the decision of the Church Council ofVienne in 1312 to establish series of Chairs in Arabic. Greek, Hebrew, and Syriac at Paris, Oxford, Bologna, Avignon. and Salamanca».

لقد تأسس الاستشراق رسميًّا، وبدأ انطلاقته الحقيقية في القرن الرابع عشر الميلادي بقرار من الكنيسة ليعمل لحسابها، على أساس أن الإسلام يمثل مشكلة للغرب المسيحي، وكان على هذا الغرب أن يتعامل مع هذه المشكلة (الإسلام) بوسائل فعالة، وقد بين ذلك الدكتور ألبرت حوراني- الأستاذ بجامعة أكسفورد- في دراسته الممتازة التي نشرها العام الماضي بعنوان:

«Islam in European Thought» Cambridge University Press, 1991, P.3.

«From the time it first appeared, the religion of Islam was a Problem for Christian Europe».

لقد وضع آباء المستشرقين خطط الاستشراق ومناهجه، وحددوا اتجاهاته وتقاليده في ضوء أهداف ريموند لول ورعيله، وفي ضوء قرار مجمع فينا الكنسي في بداية القرن الرابع عشر الميلادي.

ثم تطور الحال في أوروبا وتغير، وخرج الناس من سلطان الكنيسة، وتخلص معهم المستشرقون من العمل لحساب الكنيسة؛ لكن معظمهم لم يتخلصوا من التقاليد التي كانوا قد نشروها، والمناهج التي تتلمذوا عليها، والأفكار والآراء والتصورات والمشاعر والأحكام التي تشبعوا بها منذ نشأة الاستشراق.

ويقتضينا الحق أن نقول إن بعضهم قد حاولوا أن يدرسوا الإسلام بموضوعية ولحساب الحقيقة العلمية الخالصة، لكن قليلًا منهم هم الذين استطاعوا الانعتاق من أسر التقاليد الاستشراقية المستقرة والحاكمة منذ زمن بعيد جدًّا.

ثم تطور الحال مرة أخرى في أوروبا، وجاءت مرحلة السيطرة أو الهيمنة الاستعمارية على الشرق وتكوين الإمبراطوريات والمستعمرات في العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، وانحاز كثير من المستشرقين إلى مواقف بلدانهم الاستعمارية من الشرق، وسخروا علومهم ودراساتهم وأحكامهم لخدمة الأهداف الاستعمارية لبلادهم، وهنا نشأ تحالف ثالوثي جديد بين الاستشراق والاستعمار والتبشير.

ويقتضينا الحق أن نقول مرة أخرى إن فريقًا من المستشرقين قد وقفوا إلى جانب الحق ولم يسخروا علومهم وبحوثهم لخدمة الاستكبار والاستعلاء الغربي المتمثل في قهر الشرق الإسلامي واستعماره سياسيًّا وعسكريًّا واقتصاديًا وإعلاميًّا، بل إن بعضهم ليشعر بالحرج والخجل من موقف أساتذتهم وزملائهم المؤيد للاستعمار والاستكبار، والعامل لحسابه المتفاني في خدمته؛ يقول Stephan Wild: «والأقبح من ذلك أنه يوجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين، سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم، لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة».

ثم انتهت الحرب العالمية الثانية بتحول مركز الثقل وقيادة العالم من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فيَمَّم الاستشراق وجهه شطر أمريكا، واجتذبت أمريكا كثيرًا من المستشرقين الأوروبيين إليها، وبذا تكون الحركة الاستشراقية قد دخلت طورًا جديدًا ومعاصرًا.

وخططت الولايات المتحدة لدورها الاستعماري الجديد في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ووظفت الاستشراق، ورسمت لذلك ما أسمته بسياسة العلاقات الثقافية «Cultural Relations Policy».

وقد أفصح Mortimer Graves عن جانب من هذه السياسة الثقافية قائلًا: إن العملية الهائلة لتجميع المطبوعات المتميزة في لغات الشرق الأدنى المهمة الصادرة منذ 1900 وحتى اليوم (1950). والنظر فيها وفحصها إجراء – كما يعترف Graves – يتعلق بالأمن القومي الأمريكي (As a measure of our National Security) وهو من أجل فهم أمريكي أفضل للقوى التي تناوئ أو تنافس الفكرة الأمريكية؛ وأهم هذه القوى المناوئة لأمريكا في المنطقة – كما يذكر M. Graves: قوتان؛ هما الشيوعية والإسلام، وهذه عبارته:

« Was the need for much better American understanding of the forces wich are contending with the American idea for acceptence by the Near East. The principal of these are, of course. Communism and Islam»

See: Mortimer Graves: A Cultural Relations Policy in the Near East ‹The Near East and the Great Powers» ed. Frye. PP. 76. 78.

ويحدد الدكتور إدوارد سعيد طبيعة الاستشراق في الوقت الحاضر في هذه الحقبة الأمريكية بقوله (ص 290):

وهكذا فقد أخذ الاستشراق المعاصر على عاتقه مهمة التحرش الثقافي مع القوى المناوئة للفكرة الأمريكية، وعلى رأس هذه القوى كما حددها (Graves): الشيوعية والإسلام. أما وإن الشيوعية اليوم قد انتحرت أو اندحرت، فإن الإسلام قد بقي وحده ليمارس معه الاستشراق المعاصر: (Cultural Hostility).

وهكذا فقد تعاظم الاهتمام بدراسة الإسلام في الجامعات الأمريكية، ولقد هاجر بعض كبار المستشرقين الأوروبيين إلى أمريكا؛ ومن بينهم D.B. Macdonald الذي تعلم على يد نولدكه وفيلشر، وهاجر H.A.R. Gibb إلى جامعة هارفارد، والصهيوني ذائع الصيت Bernard Lewis.

وأخذ الاستشراق في المرحلة الأمريكية الراهنة ملامح جديدة منها: الاهتمام بدراسة المجتمعات الإسلامية Area Studies دراسة ميدانية، ودراسة ما أسموه بالإسلام الشعبي (Popular Islam) والتركيز على بحوث التصوف والطرق الصوفية، والاهتمام بتتبع المعتقدات الشعبية في المجتمعات الإسلامية، ودراسة مشايخ الصوفية وموالدهم وأضرحتهم، وتبين الأهمية الاجتماعية والسياسية والفكرية لهذه الموالد والأضرحة.

لم يكتف الاستشراق في المرحلة الأمريكية إذًا بدراسة الإسلام ذاته فحسب، بل اهتم- وبالغ في الفحص والبحث والتدقيق- بدراسة المجتمعات الإسلامية ذاتها، دينيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا.. إلخ.

كما درس العلاقات بين الشعوب والمجتمعات الإسلامية؛ والخلافات القائمة والكامنة فيها. ثم اهتم بدارسة مدى صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق، ومدى تقبل المجتمعات الإسلامية لها وأسباب ذلك، وركز المستشرقون المعاصرون على دراسة ما أسموه بالإسلام السياسي، والحركات السياسية الإسلامية ومناقشة برامجها وطموحاتها، ودرسوا المدن الإسلامية وتاريخها وواقعها.. إلخ.

فالاستشراق المعاصر- كما نرى- لم يقف مثلما كان في السابق عند الحدود النظرية في البحث العلمي، وإنما تجاوز هذه الحدود إلى الدراسة الميدانية للمجتمعات والشعوب الإسلامية من كل النواحي.

(Islam in European Thought، PP.50 – 52)

ولقد وظف الاستشراق في هذه الدراسات المعاصرة تقنيات وأساليب جديدة، فقد استخدم المناهج السوسيولجية والأنثروبولوجية والسيكولوجية، والإحصائية والتاريخية؛ ولم يعبأ كثيرًا بنشر التراث وتحقيقه وترجمته كما كان يفعل المستشرقون من قبل.

ولأنه ليس من هدف هذه المقدمة التأريخ للاستشراق، فإني لا أتوقف عند هذه المرحلة الراهنة من سير الاستشراق، لكنني أقول مستندًا على كتابات المستشرقين أنفسهم: إن الانفكاك من أغلال الكنيسة في العصر الحديث قد حرر المستشرقين إلى حد كبير من توظيف الدراسات الاستشراقية جملة وتفصيلًا لأغراضها، ورغم مساندة كثير من كبار المستشرقين الأوروبيين الخطط الاستعمارية لحكوماتهم، فإن الدراسات الاستشراقية – في العصر الحديث – قد تطورت إلى حد كبير وقد تحسنت صورة الإسلام في كتاباتهم بشكل ملحوظ، لكن يبقى أن نذكر هنا أن كثيرًا من المستشرقين – مع ذلك – لا يزالون إلى اليوم يحملون أحكام العصور الوسطى في الغرب وتصوراته عن الإسلام والقرآن والسنة والرسول ﷺ والشريعة والحضارة والتاريخ الإسلامي. والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا يصعب حصرها، لذلك فإني أشير إلى نماذج فحسب، جاء في كتاب دراسي «Text Book» في الولايات المتحدة تعريف بالإسلام والرسول والقرآن ورد فيه:

«The Muslim Religion called Islam، began in the seventh century. It was started by a wealth businessman of Arabia. called Muhammad. He claimed that he was Prophet. He found followers among other Arabs. He told them that they were picked to rule the World. Shortly after Muhammad's death، his teachings were recorded in a book called the Quran. It became the Holy Book of Islam».

Cited in Ayad al Qazzaz and Ruth Afiyo،« The Arabs in American Text books » California State Board of Education، June 1975.

أما عن تلك المسألة التي أثارها المستشرقون وأسموها بقضية أصول أو مصادر الإسلام (Origins) وأنها تكمن في اليهودية والمسيحية والتقاليد

العربية وغير ذلك فإنها مسألة بدأها يوحنا الدمشقي في القرن الثامن الميلادي، ولم يزل المستشرقون يجمعون عليها في تسليم غريب بصحتها كأنها من البداهة المسلمة، أو من المتواترات المتيقنة، وقد خاض معظمهم في البحث عن أصول أو مصادر للقرآن غير الوحي النبوي، ولا أحيل في هذا إلى كتابات جولدزيهر ولا بلا شير، ولا شاخت، ونولدكه، وهرجورونيه، ومونتجمرى واط، وجب، ومكدونالد، وجرنباوم، وجورج سيل وريتشارد بل، وكل هؤلاء قد تعرضوا لذلك؛ لكني على الجملة أقول: إن أكثر المستشرقين قديمًا وحديثًا وحتى يومنا هذا، يحرصون على إثارة هذه المسألة بصورة مبالغ في افتعالها لإثارة غبار من الشك في مصدر القرآن الكريم وأنه وحي معصوم من الله، والقول إن محمدًا- ﷺ- قد ألفه أو لفقه من الأسفار اليهودية والمسيحية ومن الجاهلية العربية وغير العربية إلخ.

والنظر في عنوان كتاب C. C. Torrey الذي أعاد نشره Frank Rosenthal في نيويورك 1967 مع مقدمة ضافية: The Jewish foundation of Islam يؤكد ذلك. ولا يزال المستشرقون مقتنعين بأهمية، بل بضرورة دراسة المصادر التي تسربت أو التي أثرت في بناء القرآن الكريم؛ يقول المستشرق الفرنسي المعاصر Maxime Rodinson.

« The scholars of the period were interested in investigation of influences. Those works which insisted on Christian influence were counterbalanced by those which emphasized Jewish influences، this latter having being studied as early as 1833 by Rabbi Abraham Geiger in a carefully balanced study. The same tendency was subsquently continued by C. C. Torrey and others. Somewhat more broadly، serious studies were devoted to Judeo – Christian sources of Quranic narrative Concepts ».

ويؤكد مكسيم رودنسون أهمية التحقيق في أصل الإسلام وأصالته (Originality) قائلًا:

«Studies of this genre are assurely very necessary. Islam is not born in a sealed container in an environment sterilized against the germs of other ideologies as contemporary Muslims authors and certain others frequently imagine.

انظر بحثه المفصل بعنوان:

«A critical Survey of Modern Studies on Muhammad» ليس ذلك فحسب، ولكن لنقرأ ما كتبه المستشرق اليهودي المعاصر Goitein:

«Islam، however، is from the very flesh and bone of Judaism»

«الإسلام من صميم لحم وعظم اليهودية»

[Jews and Arabs، New york، 1955 P.129]

أما Watt فيرى أن على الإسلام أن يعترف بحقيقة مصدره ومدى تأثير الديانات السابقة من يهودية ونصرانية، والثقافات السورية العراقية والمصرية على بنيانه:

« Islam would have to admit the fact of its origin. The historical influence of the Judeo – Christian religious traditions and the cultural traditions of Syria، Iraq. and Egypt». [Islam and the integration of Society، London 1961 P. 283].

ولنقرأ أيضًا هذا الفصل الذي كتبه M.Cook عن أصول القرآن في كتابه واسع الانتشار بعنوان (محمد) ص77 وما بعده، طبعة جامعة أكسفورد سنة 1983م، وغير ذلك كثيرٌ جدًّا.

والحق أن الباحث المحقق في كلام المستشرقين حول ما أسموه أصول

القرآن ومصادره، لا يجد فرقًا كيفيًّا بينه وبين كلام المبشرين في هذا الصدد، فبالاطلاع على كتابات مثل: «ميزان الحق» للدكتور فندر وسنكلير، أو «مقدمة في الإسلام» للدكتور سال، أو «تنوير الأفهام بمصادر القرآن «للدكتور سنكلير تسدل، أو كتاب «الهداية» إلخ نستبين جلية الأمر. ولنذكر هنا نصًّا واحدًا من كتاب «تنوير الأفهام بمصادر القرآن» يقول مؤلفه وهو منصِّر معروف: «ولكن إذا أمكن، بالبحث والتحقيق والتأمل والتدقيق، إقامة الدليل الساطع الذي يكون أوضح من الشمس في رابعة النهار، أن أكثر القرآن وأغلب عقائده، أخذت بلا شك ولا شبهة من الأديان الأخرى ومن الكتب التي كانت موجودة في أيام محمد، ولا تزال موجودة الآن، فحينئذ تندك أسس الديانة الإسلامية دكًّا وتنهار دعائمها، وتندرس معالمها».

ص11 ت12 والطبعة بدون ذكر تاريخ النشر أو مكانه.

ويحسن أن نختم هذه المقدمة بذكر ما أوجزه الدكتور ألبرت حوراني– الأستاذ بجامعة أوكسفورد وهو ممن لا يُتهمون ألبتة بالتعصب ضد الاستشراق– من بيان لأهم الانتقادات التي وجهها العلماء الدارسون «Scholars» إلى المستشرقين، حصرها في ثلاث نقاط مهمة، هي:

1. نن شيوخ الاستشراق في الغرب اعتزموا أن يكونوا (مشيخة) «Essen-tialists» وأخذوا على عاتقهم شرح كل جوانب الثقافة والمجتمعات الإسلامية من زاوية تنظر إلى الإسلام على أنه ذو طبيعة أحادية جامدة، وأن جموده قد أثر على المجتمعات التي يسيطر عليها.
2. أن مشيخة الاستشراق في الغرب قد حركتها في دراساتها عن الإسلام الدوافع السياسية، في مرحلة السيطرة الأوروبية على العالم، وحتى الآن ففي ظل نموذج آخر من السيطرة الغربية على العالم Western Ascen-dancy وقد أخذ الاستشراق على عاتقه مهمة تبرير السيطرة الغربية على

المجتمعات الإسلامية، وذلك عن طريق خلق مجتمعات راكدة جامدة تسير القهقرى، عاجزة عن حكم نفسها، ويقول الدكتور ألبرت حوراني: إن الرعب من ثورة الإسلام الذي أزعج العقل الأوروبي إبَّان عصر الاستعمار قد عاد ليزعجه مرة أخرى!!!.

ويعلق الدكتور حوراني على هذا الاتهام الموجه للاستشراق بقوله: «Again، there is some truth in this accusation»

3. بل إن المستشرقين الإنجليز والفرنسيين والهولنديين ليتحملون بعض المسئولية عن الطريقة التي مارست بها بلدانهم السلطة (في المستعمرات، وأن بعضهم قد قبل تقسيم العالم إلى شرق وغرب، وإسلامي ومسيحي، ومتقدم ومتخلف، وهذه التقسيمات هي التي تؤدي إلى تبرير السيطرة الغربية على العالم، ثم يستطرد الدكتور حوراني قائلًا: ليس كل المستشرقين قد قبلوا هذا التمييز؛ بل إن بعضهم كانوا خصومًا لسياسات بلدانهم الاستعمارية مثل Brown الذي كان مؤيدًا للثورة الدستورية في إيران.

خلق الفكر الغربي وأساتذة الاستشراق مجموعة من الأحكام السائدة نظر إليها على أنها حقائق ثابتة مؤبدة لا تناقش (عن الإسلام). والواقع أن هذه الأحكام تولدت من التأمل العقلي الدرسي الأكاديمي المنبت الصلة تمامًا عن الواقع الذي تدرسه وتحكم عليه.

ومن هذه الأفكار المؤبدة نظرة المستشرقين إلى الإسلام والحضارة العربية على أنها مرحلة انتقالية بين الحضارة الكلاسيكية اليونانية الرومانية والحضارة الحديثة في أوروبا، ولقد عبر عن ذلك المستشرق C. H. Becker بقوله: «لولا الإسكندر الأكبر لما كانت هناك حضارة إسلامية».

«Without Alexander the Great, no Islamic civilization would have flourished».

ومثل تركيز المستشرقين واهتمامهم البالغ بمسألة مصادر القرآن (Origins) والحديث كما درسها جيجر، وجولدزيهر، وهنرى لامانس، وتوري وأهرينز، وغيرهم.

«Islam in European Thought» PP. 57 – 60.

ومع ذلك فلا يفوتني أن أشيد بتلك الميزة العظيمة التي توفرت للمستشرقين وأعني بها حرصهم على امتلاك أدوات البحث في التراث الإسلامي؛ ومن ذلك معرفتهم باللغات التي كتب بها هذا التراث مثل العربية والفارسية، والتركية، وكذلك نظرتهم العامة الرحيبة إلى هذا التراث في مناطقه المختلفة أو مواطنه المتعددة المترامية مع سهولة في الحصول على المخطوطات الأصلية، الأمر الذي لم يتح للباحثين العرب إلا في القليل النادر. وأضرب في هذا المقام مثالًا واحدًا بالمستشرقة المعاصرة «Annimarie Schimmil» التي تخصصت في دراسة التصوف الإسلامي، فهي قد أتقنت أهم لغات المسلمين مثل العربية والفارسية والتركية والأردية علاوة على الإنجليزية والألمانية والفرنسية... والحق أن كثيرًا من المستشرقين يحرصون على تعلم لغتين من لغات المسلمين على الأقل ليتمكنوا من السير في بحوثهم، ولا يخفى ما لذلك من قيمة في حقل الدراسات الإسلامية.

وبعد: فمهما يكن من أمر، فإني قد حرصت– في هذا الكتاب– أن أجتهد – ما وسعني الاجتهاد – أن أطلع على دراسات المستشرقين أنفسهم، وعلى مراجعة أقوالهم وأحكامهم، وأن أقتبس كثيرًا منها، بعد أن أترجمه إلى اللغة العربية أو اللغة الإنجليزية، ليطلع القارئ الكريم عليها بنفسه ويشاركني الفهم والاستنباط والحكم، ولم ألتفت إلى الأحكام السابقة المادحة أو القادحة كما أسلفت.

كما ركز هذا البحث على تتبع دراسة المستشرقين لأصول الفكر الإسلامي: القرآن والحديث لما له في ذاته من أهمية علمية، ولما للاستشراق كله من أهمية إذ أنه يمثل مستوى من مستويات الحوار بين الحضارتين الإسلامية والغربية، كما يمثل وجهًا من وجوه العلاقة التاريخية بين الإسلام والغرب، وكما أنه المسئول عن رسم الصورة النمطية المتوطنة في الغرب عن الإسلام والمسلمين، كما أنه المسئول عن تشكيل العلاقة المتوترة بين الإسلام والغرب

هذا وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا البحث، والحمد لله رب العالمين.

محمد عبد الله الشرقاوي

إسلام آباد في 21 / 8 / 1992م

obeikandl.com

تمهيد

مهما اختلف الباحثون بشأن الاستشراق والمستشرقين فإنهم غالبًا ما يلتقون[1] عند بعض النقاط البالغة الأهمية والتي يمكن إيجازها وإبرازها فيما يلي:

1 – كان الاستشراق في نشأته الأولى – في الزمن البعيد – صادرًا عن أغراض ودوافع دينية وتبشيرية كنسية.

2 – كما أن خدمة الاستعمار كانت وراء انطلاقة الاستشراق النشطة في القرن الثامن عشر وما تلاه.

3 – أثر المستشرقون أعمق تأثير وأخطره في صياغة التصورات الغربية عن الإسلام، ومن ثم كانت لهم اليد الطولى في تشكيل موقف الغرب إزاء الإسلام والمسلمين على مدى قرون عديدة وحتى اليوم.

4 – يثبت الواقع أن للمؤسسة الاستشراقية تأثيراتها العميقة الفاعلة في الفكر الإسلامي الحديث؛ فقد أثر المستشرقون إلى أبعد حدود التأثير في بناء بعض العقول الإسلامية النشطة، وصياغة رؤيتها الخاصة عن الإسلام ذاته، مع التمكين لها، وإذاعة فكرها ونشره على أوسع نطاق.

5 – هناك علاقات تبادل فريد وعجيب بين فهم الاستشراق من ناحية، وفهم العلاقات التاريخية بين الغرب والشرق من ناحية أخرى.

(1) يلتقي على هذا الرأي بعض المستشرقين مثل: دينيه وجرومانوس، وروجيه جارودي ومحمد أسد، ومعظم دارسي الاستشراق من العلماء العرب مثل إدوارد سعيد، ونجيب العقيقي، والدكتور حميد الله، والدكتور فؤاد سزكين، والدكتور محمود حمدي زقزوق، والدكتور مصطفى السباعي، والدكتور عبد الجليل شلبي، والدكتور قاسم السامرائي، والدكتور محمد البهي، والشيخ أبو الحسن الندوي، والدكتور عبد الحليم محمود، ومالك بن نبي، والدكتور عرفان عبد الحميد، والطيباوي، والدكتور حسن حنفي، والدكتور عبد الحميد مدكور، والدكتور إسماعيل راجي الفاروقي، والدكتور جعفر شيخ إدريس، وغير هؤلاء من الدارسين كثيرون.

6 – وتعتبر ظاهرة «الاستشراق» فريدة غير مسبوقة في تاريخ الحضارات كلها، فلم تقم حضارة بمثل هذا الجهد الشامل لدراسة حضارة أخرى من جميع وجوهها، لتحقيق غايات محددة مرسومة سلفًا.

وهذا يوضح لنا خطورة موضوع الاستشراق، ويؤكد الحاجة إلى دراسات علمية فاحصة متعمقة لمسألة الاستشراق من جميع زواياها، والوقوف على تفصيلاتها الدقيقة، وتشعباتها المتعينة السافرة، أو المحجبة غير المعلنة.

وليس من شأن هذا البحث الوجيز أن يضع حلولًا لمشكلات عويصة، لكن حسبه أن يشير ويقترح، كما أننا لا ندعي لأنفسنا فضلًا أو علمًا، فإن هذا البحث من أوله إلى آخره لا يعدو أن يكون دراسة لأقوال المستشرقين أنفسهم وتمحيصًا لاعترافاتهم الكثيرة في هذا الصدد.

وغني عن البيان أن نقول إن المستشرقين ORIENTALISTS هم أولئك النفر من الباحثين الغربيين الذين تخصصوا في دراسة لغات الشرق بعامه، وآدابه، وعقائده، ونُعنى في بحثنا هذا – من بينهم – بأولئك النفر الذين تخصصوا في دراسة اللغة العربية والدين الإسلامي، قرآنًا، وسنة، وتشريعًا، وحضارة، وفكرًا، وتصوفًا، وفلسفة، وفنونًا، وآدابًا، وعادات، وتقاليد... [1].

(1) انظر: Edward Said، Orientalism، New york، 1979 المقدمة والفصل الأول، وكذلك انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، نشرة دار المعارف بمصر (ثلاثة مجلدات) – المقدمة.

– H.A.R. Gibb، Oriental Studies in the U.K.. Cambridge. 1951

– Anwar Abdulmalek: Orientalism in Crisis. 1963 (Diogenes 44)

– A.L. Taibawi، English – speaking Orientalists: A Critique of their Approach to the Islam and Arab Nationalism، P 1 – 2 (Islamic Quarterly)1964.